

الفصل الخامس

نقد الأصول

تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه *

- الأهمية في معرفة شخص كاتب الأصل أو المؤلف - أمثلة : رسالة ابن معن في سنة ١٥٨٥ -
- مؤلف أخبار رحلة الأمير فخر الدين المعني إلى إيطاليا من سنة ١٦١٣ إلى سنة ١٦١٨ -
- شيء عن المصادمات البحرية بين العثمانيين والنسكان في القرنين السادس عشر والسابع عشر -
- كاميل ديمولان في باريس في ٢٤ يونيو سنة ١٧٨٩ - سفير السندقية في باريس في أواخر يونيو سنة ١٧٨٩ - مخطوطة عن أخبار الدولة المصرية في سورية في زمن إبراهيم باشا - جمع المعلومات عن شخصية المؤلف - معرفة زمن التدوين - تحديد مكان التدوين .

حينما يثبت للباحث في التاريخ أن الأصل أو المصدر التاريخي صحيح وغير مزيف ، فليس معنى ذلك أن المعلومات الواردة به ذات قيمة تاريخية كبيرة . ولا بد من نقد الأصل التاريخي من نواح أخرى . وتحمل بعض الأصول اسم مؤلفها ، و زمان تدوينها ومكانه . وبعض الأصول التي تكون متسمة بطابع الصحة وعدم التزييف ، تُغفل أحياناً ناحية أو أكثر من هذه النواحي . فيُنقص ذلك من قيمتها التاريخية . فكيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخي وهو يجهل اسم مؤلفه وشخصيته وعلاقته بالحوادث التي كتب عنها ؟ فهل شهدا بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير ؟ ومتى دونها ؟ هل دونها في أثناء وقوع الحوادث أم بعدها بزمن قصير أم طويل ؟ وفي أي مكان تم ذلك التدوين ؟ وفي أي مكان وقوع الحوادث أم في مكان بعيد عنه ؟ من الضروري معرفة كل أو أغلب هذه النواحي ، بقدر المستطاع . فكيف السبيل إلى ذلك ؟

إن معرفة كاتب الأصل التاريخي وشخصيته مسألة هامة ، لأن قيمة المعلومات التي يوردها ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب ومدى فهمه للحوادث ، وبكل الظروف التي تحيط به على وجه العموم . فالمعلومات التي يدونها الأمير أو الحاكم

* هذا هو المقصود بلفظ (localization) .

أو الوزير أو السياسي أو صاحب المهنة أو الجندي أو الأستاذ أو الفلاح ، تختلف وتتفاوت قيمتها بحسب حالة كل منهم . وكاتب الأصل التاريخي سواء أكان شاعداً عياناً أم اعتمد على غيره من شهود العيان أو الرواة ، يعدّ الواسطة التي يصل المؤرخ عن طريقها إلى الوقائع التاريخية . فإذا كان الكاتب ثقة عدلاً بعيداً عن الأهواء بقدر المستطاع ، كانت معلوماته أقرب إلى الصحة بصفة عامة ، والعكس صحيح .

وعلى ذلك تتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كاتب الأصل أو الوثيقة التاريخية . وفي هذه الناحية وغيرها من نواحي نقد الأصول التاريخية ، يصبح عمل المؤرخ شبيهاً بعمل القاضي ، وإن اختلفت الظروف . فالقاضي يمتاز بأن شهود الحوادث أحياء أمامه – في الغالب – وينطقون بالحق أو بالكذب ، ولكن هذا المثل لا يتوفر للمؤرخ ، الذي عليه أن ينتقل من الحاضر إلى الماضي بالعقل والنقد والخيال .

وأحياناً تضيع عبثاً جهود المؤرخ لمعرفة اسم كاتب الأصل التاريخي وشخصيته ، فيظل مجهولاً ، وإن كان هذا لا يمنع من الإفادة به ، إذ ربما يكون هذا الكاتب المجهول هو المصدر الوحيد لما قدّمه من المعلومات . ومن ذلك مثلاً أن كاتباً مجهولاً – ربما كان إغريقياً – وضع في حوالي سنة ٦٠ م . ما يسمى بـ « الطواف بالبحر الإريترى » – ويُقصد به البحر الأحمر والخليج الفارسي والمحيط الهندي – وصف فيه الموانئ التي مرّ بها ، من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي فالهند ف ساحل شرقي أفريقيا . وقد قدّم لنا ذلك الكاتب معلومات طريفة عما شهده في تلك الأنحاء* .

ونجد مثلاً آخر لما يمكن أن يفيد الباحث في التاريخ بما يدونه كاتب مجهول ، ما سجله رجل مجهول الاسم من المذكرات عن رحلة فاسكو دا جاما البرتغالي في أواخر القرن الخامس عشر حول رأس الرجاء الصالح واتجاهه إلى ساحل

Periplus of the Erythraean Sea, trans. by W. H. Schoff London, 1912. *

Pearce, F.B. : Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa. London,

1920, pp. 22-34.

شرف أفريقيا . وقد دون ذلك الكاتب المجهول - فيما دونه - مشاهداته في مواضع متعددة مثل موزمبيق ومومباسا وماليندى وذكر زنجبار باسم جاجبير ، المستمد من لهجة تلك المنطقة . ولو لم يسجل لنا هذا الكاتب المجهول معلوماته لظلت أخبار رحلة فاسكو دا جاما مجهولة (١) . وكم من فضل لا يُعرف صاحبه !

وفي بعض الأحيان لا يستطيع المؤرخ إلا أن يجمع القليل من المعلومات عن كاتب الأصل التاريخي ، فاعليه عندئذ إلا أن يقرّ بذلك ، ويدرس المعلومات الواردة في نطاق العصر أو الناحية التي تتصل بها ، ويمكنه أن يقيّمها على نحو ما ، ويفيد منها بقدر المستطاع .

وينبغي أن نلاحظ أن وضع اسم شخص ما على أصل تاريخي لا يعني حتماً أنه هو كاتبه كله أو بعضه . وفي أحوال كثيرة يمكن للمؤرخ أن يتعرف على كاتب الأصل التاريخي المخطوط بدراسة نوع الورق والخط والحبر ، واللغة والأسلوب ، والمصطلحات الخاصة بالمعهد التاريخي المعين ، وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به .

وإنه ليختلط الأمر أحياناً على الباحث في التاريخ ، فيخطئ في نسبة الأصل التاريخي إلى كاتبه الحقيقي . ومن الأمثلة على ذلك رسالة اختلف بشأنها باحثان كبيران هما الأب بولس قرألى والأستاذ عيسى إسكندر المعلوف . فالأب بولس قرألى يقول في مجموعة الوثائق التي نشرها عن فخر الدين الثاني أمير لبنان وبلاط تسكانا - يقول : إنه عند حضور على باشا أمير البحر التركي إلى المياه السورية ، لكي يفض النزاع بين الأمير فخر الدين ويوسف سيف صاحب طرابلس ، في يوليو سنة ١٦١٩ ، أرسل الأمير فخر الدين رسالة إلى الباشا التركي يعتذر فيها عن عدم الحضور إليه بنفسه (٢) .

A Journal of the First Voyage of Vasco da Gama, 1497-1499. Trans. by E.G. (١)

Ravenstein. Hakluyt Society, London ?

Pearce: op. cit. pp. 56-61.

Carali, P. : Fakh Ad Dine II. Principe del Libano e Corte di Toscana (٢)

(1605-1635). Roma, 1936. p. 99.

وعائني الأب بولس قرألى (توفى ١٩٤٥ ؟) ببعض الوثائق الهامة لإعداد رسالتي للماجستير . وعرفته شخصياً في روما في سنة ١٩٣٥ . ومن آثاره المطبوعة «المجلة البطريركية» و«فخر الدين المعني =

ويقول الأب بولس قرألى إنه نقل هذه الرسالة عن الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ، الذى يعتبر فى كتابه عن الأمير فخر الدين ، وكما عبر عن ذلك فى حديث شفوى معى فى زحلة فى صيف ١٩٣٣ ، أنها صادرة عن الأمير إلى الباشا التركى الذى كان يحاربه - ويقصد إبراهيم باشا دمشق . ولكنه يتشكك فى تاريخ صدورهما . ولا يمكنه أن يحدده (١) . وأورد الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف نص هذه الرسالة (٢) وقال بدوره إنه قد نقلها وترجمها عن كتاب ريكو عن « تاريخ الإمبراطورية العثمانية (٣) » .

ويظهر أن الواقع فى شأن هذه الرسالة ، هو غير ما يذهب إليه كل من الأب بولس قرألى والأستاذ عيسى إسكندر المعلوف . وذلك لأنه قد أمكننى العثور على النص الذى أخذ عنه نوليس وريكو هذه الرسالة . وذلك فى كتاب مينادوى الرحالة الإيطالى المعاصر الذى زار سورية ولبنان فى أثناء حملة إبراهيم باشا دمشق لتأديب الدرروز فى سنة ١٥٨٥ . والرسالة الواردة فى كتاب نوليس وريكو هى بنصها الرسنة التى أوردها مينادوى فى كتابه عن « تاريخ الحرب بين الترك والفرس » ، ويقول : إن ابن معن قد أرسلها إلى إبراهيم باشا فى يوليو ١٥٨٥ (٤) . ولا يحدد مينادوى ولا نوليس وريكو مَنْ هو المقصود بابن معن .

وأظن أنه من المستبعد أن يكون المقصود بابن معن هنا هو الأمير فخر الدين

= الثانى : إداره وسياسته - السنة العاشرة من محنة البطريكية شهاب - أيار ١٩٣٥ « و « رحلة فخراندين المعنى الثانى إلى إيصال » بإيطالية و الأمير شير الشهابى الثانى « و « السوربون فى مصر » .

(١) المعلوف ، عيسى إسكندر : تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثانى . جوية ، لبنان ، ١٩٣٤ . ص ٣٨٥ .

وعسى إسكندر المعلوف (١٨٦٩ - ١٩٥٦) كون نفسه دراسيا حتى أصبح عالماً أديباً موسوعياً . مارس التدريس وأبدى نشاطاً فى الصحافة وصار عضواً فى مجمع علمية كثيرة وجمع مكتبة عظيمة . ومن آثاره المطبوعة « مجنة الآثار » و « دورى القلوط فى تاريخ بني المعلوف » . ومن مؤلفاته المخطوطة . الأخبار المدونة والمروية فى أنساب الأسر الشرقية « و ١٤ جزءاً . وقد أفدت من علمه منذ سنة ١٩٣٣ .

(٢) المعلوف ، عيسى إسكندر : (المصدر المذكور) ص ٣٨٥ - ٣٨٧ .

(٣) Knolles, R. and Ricaut, P : The Turkish History from the Original of that Nation to the Growth of the Ottoman Empire, with a Continuation to this Present Year (1687) 3 vol London. 1687-1700. vol I p. 693

(٤) Minadoui, G . Historia della Guerra fra Turchi e Persiani Venetia, 1594 (٤) pp. 270-281.

المعنى الثاني المولود في سنة ١٥٧٢ ، والذي كان في زمن حملة إبراهيم باشا غلاماً في سن الثالثة عشرة . وبذلك نرى أن المقصود بابن معن هنا هو - على الأرجح - قرقماز بن معن والد فخر الدين وليس الأمير فخر الدين المعنى الثاني . وقد حاول إبراهيم باشا أن يحمل قرقماز على القدوم إليه ، ولكنه لم يفعل خشية البطش والغدر به . وبذلك يمكننا أن نستخلص الحقيقة في شأن كاتب هذه الرسالة . ونعرف أنها كتبت في يوليو سنة ١٥٨٥ ، آخذين في ذلك بما أورده مينادوى المؤلف المعاصر ، والذي يحتوى كتابه على أقدم نص مترجم معروف لهذه الرسالة ، مع ملاحظة أن كتاب مينادوى قد طبع في البندقية في سنة ١٥٩٤ . وقد نشرت أغلب هذه الرسالة في صورتها الإنجليزية ، وفي صورتها الإيطالية ، في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة) في سنة ١٩٤٢^(١) .

ومن الأمثلة على الشك في نسبة الأصل التاريخي إلى كاتبه ، أخبار رحلة الأمير فخر الدين إلى إيطاليا (من سنة ١٦١٣ إلى سنة ١٦١٨) . فعندما نشر الدكتور أسد رستم - بالاشتراك مع الأستاذ فؤاد إفرام البستاني المدير الحالي للجامعة اللبنانية في بيروت - كتاب أحمد الخالدي الصفدى عن تاريخ الأمير فخر الدين المعنى^(٢) ، اعتبر أخبار هذه الرحلة من كتابة مؤلف مجهول ، وأنها ليست من تأليف الخالدي الصفدى وأنها مرسوسة عليه^(٣) .

(١) عبان ، حسن : فخر الدين الثاني أمير لبنان وبلاط تسكانا (١٦٠٥ - ١٦٣٥) نأب بولس قرأى ، عرض ونقد مع وثائق لم تنشر . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة) ، المجلد ٦ ، القاهرة ، مايو ١٩٤٢ . ص ١٣٤ - ١٥٩ .

(٢) الصفدى ، أحمد الخالدي : تاريخ الأمير فخر الدين المعنى . نشره الدكتور أسد رستم والأستاذ فؤاد إفرام البستاني . بيروت ، ١٩٣٦ .

والخالدي الصفدى (توفي حوالي ١٦٢٥) نشأ في صفد وطلب العلم في الأزهر ثم رجع إلى صفد وجها درس وأفتى وناب في القضاء ومن تأليفه « شرح على ألفيه ابن مالك » .

(٣) نشر الأستاذ محمد شفيق غربال مشاهدات فخر الدين في إيطاليا باعتبار أنها من وضع أحمد الخالدي الصفدى بعنوان « أمير سوري في إيطاليا » . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة) المجلد ٢ العدد ١ . القاهرة ، مايو ١٩٣٤ . ص ٧٦ - ١١١ .

والأستاذ غربال (١٨٩٤ - ١٩٦١) من خريجي مدرسة المعلمين العليا ودرس في جامعتي ليشرپول ولندن وعلم في المعلمين العليا وفي كلية الآداب بجامعة القاهرة وصار عميداً للكلية ، ونقل - في غير مصلحة العلم بالجامعة-نقل إلى وزارة المعارف العمومية وأصبح وكيلها . ويعد من رواد الدراسة المنهجية في التاريخ الحديث . ومارس نشاطاً متنوعاً في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وفي معهد الدراسات العربية العالية وفي جميع اللغة العربية وفي منظمة اليونسكو . وكان عميق الفكر مرهف الحس واسع الثقافة ، ومن آثاره المطبوعة =

ويسوق الدكتور أسد رسم بعض الأدلة لإثبات وجهة نظره . فيقول : إن لغة أخبار هذه الرحلة ، لا تتفق من حيث اللغة والأسلوب مع لغة متن التاريخ الذى وضعه أحمد الخالدى الصفدى عن تاريخ الأمير فخر الدين المعنى . فبينما يرى هذا العالم الأزهرى يقول « حمداً لمن جعل نظام العالم فضلاً منه صلة إلى تصحيح معاش ابن آدم » ، يقرأ فى أخبار هذه الرحلة : « ايش معك - من اين جاى - ايش هذه المسلمين - إلى الدار التى برات المدينة » . ويرى أن تواريخ هذه الرحلة مسيحية بينما تواريخ كتاب الخالدى هجرية . ويجد أن نسخة (ك) لا تحتوى إلا على أخبار وجيزة لهذه الرحلة ، ولا تتفق مع سائر الكتاب . ويقول الدكتور أسد رسم : إن أخبار هذه الرحلة ربما ترجع إلى أحد الخوازنة الذين عُرِف عنهم شىء من الاهتمام بتاريخ الأمير فخر الدين ، وكما ذكر الرحالة الفرنسى دى لاروك أن أبا نوفل الخازن قد أُلّف فى تاريخ الأمير فخر الدين^(١) .

وصحيح أننى لم أطلع على النسخ الخمس التى درسها الدكتور أسد رسم وقارن بينها عندما أقدم على نشر تاريخ الخالدى . ولكننى اطلعت فقط على النسخة الفوتوغرافية من هذا التاريخ الموجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة^(٢) ، والمنقولة عن

= « بدء المسألة المصرية وهوض محمد على » ، بالإنجليزية و « مصر عند مفترق الطرق » و « محمد على الكبير » و « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية - الجزء الأول » و « الجمهورية التركية » استكمالاً لمادة الترك فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية ، والإشراف على نشر « الموسوعة العربية الميسرة » . وكان له الفضل فى إرسالى فى البعثة الجامعية فى سنة ١٩٣٤ . ولا بأس بأن أقول - للذكرى والتاريخ - إن مشروع تلك البعثة كان قد تعرّش لشغل المكان الخالى بقريب لعميد الكلية وقتئذ الدكتور منصور فهمى . وتم تنفيذ البعثة على أيدى الدكتور حسين هت - خالى - ومحمد شعير بك - مدير الجيزة وصديق الأسرة - ومحمد حسن المشاوى بك - السكرتير العام لوزارة المعارف . وكان للأستاذ غربال الفضل - مع الدكتور أسد رسم - فى حثى على البقاء فى إيطاليا فى سنة ١٩٣٥ . وكان الأستاذ غربال أقرب أساتذتى إلى ، وقيل إننى كنت أقرب - أو من أقرب - تلاميذه إليه . وكان يعارض دراسى لدائى . ولكن حينما أرسلت إليه ترجمة المحجم كتب لى فى ٦ نوفمبر ١٩٥٩ يقول : « كنت سعيداً بأن أتلقى ترجمتك لدائى - كنت سعيداً من أجلك - فقد لقيت على ما يظهر الكثير من أجل دائى - وإن إتمام العمل الذى يصحب الإنسان عمراً نزع من فك الرقية - فهتياً لك عمة الحريم . وسى - بعد أن تم ما تبقى من دائى - أن تدخل (فى اعتبارك) ما اكتسبت من نظره للإنسان . وعلى كل حال فلنكلم يوم شأنه . ولنجعل اليوم يوم ارتياح لشأن تم ولغد شؤونه » .

(١) الصفدى ، أحمد الخاندى : (المصدر المذكور) . المقدمة ص ١٥ .

(٢) دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٤٩١٢ تاريخ مخطوط . وكان لأحمد رامى أستاذى فى مدرسة القرية الأميرية فى ١٩٢١ انفض فى تصوير هذه النسخة من ميونخ فى ١٩٣٣ .

نسخة المكتبة العامة في مونيخ ، وهي النسخة التي يرمز لها الدكتور أسد رستم بالحرف (م) (١).

وعلى الرغم من ذلك فإنني أقدم بعض الملاحظات على الأدلة التي قدمها الدكتور أسد رستم ، مستمدة من نفس الكتاب الذي نشره ، ومن مخطوطة القاهرة .

١ - نلاحظ من ناحية اللغة أن لغة الجزء الذي يعترف الدكتور أسد رستم بنسبه إلى الخالدي ، ليست كلها في المستوى اللغوي للصفحات الأولى التي يقتبس منها النص السابق الذكر . وكثيراً ما نجد في هذا الجزء ألقاظاً وأساليب عامية لا تناسب لغة العالم الأزهرى . ومن الأمثلة على ذلك : « وكان الشيخ عمرو سبق أهله وجاء حتى يعلم الأمير فخر الدين ويركبه من قلعة بانياس فوصل بحال الليل إلى باب القلعة ودق الباب على البواب حتى يروح يعلم الأمير (٢) » ، و « قال الحاج كيوان ان كان ما بتروح انت أنا بروح واقسم على الأمير أن يرسل يجيب له جواره (٣) » ، و « رعى البندق من برآ (٤) » ، و « لولا انفضاض العساكر لكان مراده يتخفا بناس قلايل (٥) » ، و « لكن نفذ الأمر فما بقي يمكن الدفاع لأن الوقت كان غير مساعد (٦) » .

ونلاحظ من الناحية اللغوية أيضاً أن الخالدي يذكر في أحد المواضع من تاريخه ، وصول رسالة من الأمير فخر الدين في إيطاليا إلى أهله وذويه في لبنان . ولغة هذه الرسالة تشبه اللغة السائدة في الجزء الخاص برحلة الأمير فخر الدين . فترد في هذه الرسالة الجمل الآتية : « وصلوا إلى جزيرة كنديا التي تحت حكم البنادقة وصار عليهم فرتوتة عظيمة » ، و « فطلع الامير فخر الدين في مدينة الكرنا (٧) ولاقاه وزير غران دوكا بمن معه واستقبلوه بالإعزاز والإكرام وأنزلوه في دار وعينوا له جميع لوازمه بالتمام » . و « بعد أربعة أيام وصل الغليونان بالبحریم

(١) المكتبة العامة في مونيخ تحت رقم ٤٢٧ مخطوطات عربية .

(٢) الصفدى ، أحمد الخالدي : (المصدر المذكور) . ص ١٨ .

(٣) الصفدى ، أحمد الخالدي : (المصدر المذكور) . ص ٨ . والمقصود جواريه .

(٤) الصفدى ، أحمد الخالدي : (المصدر المذكور) . ص ٢١ .

(٥) الصفدى ، أحمد الخالدي : (المصدر المذكور) . ص ٢٤ .

(٦) الصفدى ، أحمد الخالدي : (المصدر المذكور) . ص ٤٩ .

(٧) الكورنا هي ليثورنو ميناء تسكانا .

والحاج كيوان وقد كان الأمير فخر الدين آيس منهم وقطع الرجا عنهم « ، و « توجه بنفسه وفي خدمته وزير الدوكا إلى مدينة فرنسا (١) تحت إغران دوكا (٢) » .

وترد في أخبار رحلة الحمل الآتية : « فاسلوا اعلموا الدوكا بذلك فعين وزيره الكبير المسمى لورنسا أنه يأخذ الأمير إلى عنده » ، و « حضرة الأمير بقا في هم وأفكار من جهة المركبين الذين افترقوا عنه الذين فهم اعياله والحاج كيوان فمن حكمة الله تعالى وصلوا الى اسكلة الغورنا (٣) بالسلامة (٤) » .

فإذا أنكر الدكتور أسد رستم نسبة هذه الرحلة إلى الخالدي ، فلماذا لا ينكر أيضاً نسبة هذه الرسالة المذكورة آنفاً إليه ، وأسلوبها مشابه للأسلوب الذي تتضمنه أخبار رحلة الأمير فخر الدين ؟ وصحيح أنه يتضح في أخبار هذه الرحلة الأسلوب العامي أكثر مما يتضح في سائر الكتاب . وربما يرجع ذلك إلى أنه فضل تسجيل كلمات الأمير حينما كان يقص عليه هذه الأخبار ، وكما يذكر الخالدي ذلك إذ يقول : « وذكر حضرة الامير مفصلاً وأما مدينة بليروما مدينة عظيمة بصور لها اربع ابواب . . . (٥) » .

٢ - ومن ناحية التوقيت . يقول الدكتور أسد رستم : إن تواريخ كتاب الخالدي هجرية وإن تواريخ الرحلة المجهولة المؤلف تواريخ مسيحية . وهذا غير صحيح تماماً . فلقد ورد في نوضع واحد من الرحلة التاريخ المسيحي (السرياني) حيث نجد « واما المرسة يوم قاسم كون وهو يوم خمسة وعشرين من شهر تشرين أول ومدة سفرهم من اسكلة صيدا إلى اسكلة النورنا ثلاثة وخمسون يوماً (٦) . ومع ذلك فإن الرحلة تذكر التاريخ الهجري في أكثر من موضع فنجد « وعادها إلى أذرب وكان ذلك في السنة المذكورة سنة اربعة وعشرين وألف (٧) » ، و « بنى يعصلي الأمير جماعة

(١) فرنسا هي فورنسا مركز حركة نهضة في إيطاليا .

(٢) أنصهار ، أحمد الخالدي : (المصدر المذكور) ص ٣٢ .

(٣) لغورنا هي ليفورنو كذلك .

(٤) رحبة الأمير فخر الدين إلى أوروبا الذي نشره الدكتور أسد رستم والأستاذ فؤاد إفزام السعدي - على أنها مجهولة المؤلف - كملحق لتاريخ الأمير فخر الدين المعني المشار إليه . وكما وردت في النسخة (م) والنسخة (ج ب) بين المخطوطات التي وقعت تحت أيديهما . ص ٢١٠ .

(٥) الرحلة : (المصدر المذكور) . ص ٢٣١ .

(٦) الرحلة : ص ٢٠٨ .

(٧) الرحلة : ص ٢٢٨ .

في رمضان^(١) ، و « نزلوا المركب في أواسط شهر رمضان سنة سبع وعشرين بعد الألف^(٢) » .

٣ - ويميل الدكتور أسد رستم إلى اعتبار هذه الرحلة من وضع أحد الخوازنة الذين عملوا في خدمة الأمير فخر الدين . ولكن هناك بعض العبارات التي تجعلنا نشك في هذا الرأي مثل : « لان في بلاد النصارى امارة عدة^(٣) » ، و « وكذلك لهم ديوره^(٤) » فيها رجال يقال لهم كبوشيين ما يلبسوا قميصاً ولا لباساً إلا الصوف على الزلط ويحلقوا وسط رؤوسهم ودايره ويخلوا لهم إكليل وذلك لأجل الشوك الذي حظوه اليهود على راس المسيح يوم صلبه على زعمهم^(٥) » ، و « في بلادهم يزرعوا الكتان وكذلك في جميع بلاد النصارى^(٦) » . ولا ينتظر من مسيحي أن يكتب هذا الكلام ، الذي يبدو فيه تناول تفصيلات تدل على دهشة المشاهد ، ولا يعتقد المسيحيون أن المسيح قد نجا من الصلب ، لأن صلبه وعذابه للتكفير عن خطايا البشر ، هو من أسس العقيدة المسيحية . ومن المستبعد إذاً - بل من غير المعقول - أن يكتب مثل هذا الكلام أحد الخوازنة المسيحيين الموارنة الكاثوليك . ولا ينتظر أن تصدر مثل هذه الأقوال إلا من شخص مسلم .

٤ - صحيح أن الرحالة الفرنسي دى لاروك ذكر أن أبا نوفل الخازن قد ألف كتاباً في تاريخ الأمير فخر الدين^(٧) ، ولكنه لم يحدد اسم المؤلف ولا اسم الكتاب ، ومن غير المعقول أن يكون هو كاتب هذه الرحلة ، لأنه من المسيحيين الموارنة .

٥ - لقد فصل الدكتور أسد رستم في الكتاب الذي نشره بالاشتراك مع الأستاذ فؤاد إفرام البستاني ، ما كتبه الخالدي عن أخبار سورية ولبنان (ص ٢ - ٢٠٧) ، عن الجزء الذي يحتوي على أخبار رحلة الأمير فخر الدين إلى أوروبا (ص ٢٠٨ - ٢٤١) ، باعتبار أنه لا توجد علاقة ما بين مؤلفي كل من هذين القسمين .

(١) الرحلة : ص ٢٣٥ .

(٢) الرحلة : ص ٢٣٨ .

(٣) الرحلة : ص ٢١٦ .

(٤) ديوره أى أديرة .

(٥) الرحلة : ص ٢١٩ .

(٦) الرحلة : ص ٢٢١ .

(٧) De la Roque, R : Voyage en Syrie, Paris, 1772. V. II. pp. 132-133.

ولكننا إذا أجرينا المقابلة بين هذين القسمين وجدنا الارتباط وثيقاً بينهما في أكثر من موضع . ومثال ذلك أن أخبار الرحلة تبدأ بما يلي : « وكنا قد ذكرنا قبل هذه نزول حضرة الأمير فخر الدين في البحر في الثلاث غلايين^(١) » . وهذه إشارة إلى كلام سابق ورد فيما كتبه الخالدي عن الأمير حيث يقول : « وسافر من اسكلة صيدا الأمير فخر الدين في الثلاث غلايين^(٢) » . وورد أيضاً في أخبار الرحلة « ودار المركب صوب اسكلة عكا وطلع إلى البر كما سيأتي ذكره في موضعه انشا الله تعالى^(٣) » . وهذا الموضع المقبل لا يأتي في الرحلة ذاتها بل يأتي في أخبار الخالدي حيث يقول : « واما الأمير فخر الدين فانه لما قارب اسكلة عكا ارسل قدامه اناساً متعنين ليكشفوا له اخبار البلاد . . . فلما تحقق الأمير فخر الدين ذلك نزل من الغليون الذي جاء فيه وطلع الى البر^(٤) » .

٦ - يذكر الدكتور أسد رستم أن أخبار هذه الرحلة وردت في متن النسختين (م) و (ج ب) ، وهما من النسخ الأساسية التي اعتمد عليها في نشر الكتاب المشار إليه . ولقد وردت أخبار الرحلة في النسخة (م) - أي نسخة مكتبة مونيخ التي اعتمدت في دراستي على صورة منها موجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة - وردت متفرقة ومتداخلة في أخبار حوادث سورية ولبنان ، أي في تاريخ الأمير فخر الدين المعنى . وأرقام صفحات هذه الرحلة المخطوطة هي من ٣٥ إلى ٤٦ ومن ٦٠ إلى ٧٦ ومن ٧٩ إلى ٨٢ ومن ١١٥ إلى ١٢٦ ومن ١٢٧ إلى ١٣٠ . وتأتي أخبار سورية ولبنان قبل وبعد الصفحات الخاصة بالرحلة . وتنتقل هذه النسخة (م) من أخبار رحلة الأمير فخر الدين إلى حوادث سورية ولبنان ، وبالعكس ، بحسب ترتيب وقوعها الزمني .

٧ - يقول الدكتور أسد رستم إن النسخة (ك) - نسخة الشيخ كسروان الخازن وهي من النسخ الرئيسية التي اعتمد عليها - لا تحتوي إلا على أخبار وجيزة لهذه الرحلة . ويُستفاد من دراسة الدكتور أسد رستم أن النسخة (ك) ترجع إلى أواخر

(١) الرحلة : ص ٢٠٩ .

(٢) انصفي : ص ١٩ .

(٣) رحبة : ص ٢٣٩ .

(٤) انصفي : ص ٦٩ .

القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر ، وأن النسخة (م) – أى نسخة مونيخ أو القاهرة – قد تكون أحدث قليلاً . وحتى لو ثبت أن النسخة (ك) أقدم من النسخة (م) فإن هذا لا يعدّ دليلاً قاطعاً على أن النسخة (ك) هى أصح أو أقرب النسخ إلى المخطوط الأصلي بخط الخالدي ، الذى هو ضائع مجهول . وربما تكون النسخة (م) أقرب إلى ذلك الأصل المجهول . وليس لدى أحد الدليل القاطع على مدى الصلة بين النسختين (ك و م) والأصل الأول الضائع .

وعلى ذلك فإننى أميل إلى اعتبار أخبار الرحلة التى قام بها الأمير فخر الدين المعنى إلى أوروبا ، من تأليف أحمد الخالدي الصفدى ، وجزءاً من تاريخه عن الأمير ، اللهم إلا أن تكون هناك أدلة أخرى لدى الدكتور أسد رستم أو لدى غيره من الباحثين ، لإلقاء مزيد من الضوء على هذه المسألة .

وبين هذا كله مدى الصعوبات التى تعترض الباحث فى التاريخ عند السعى إلى إثبات شخصية كاتب أصل تاريخي ما ، وتوضح اختلاف الباحثين فى استنتاجهم وما يتعرضون له من دواعى الشك . ومن العمل على الخروج من الإنكار أو الشك إلى اليقين أو إلى ما يقرب منه بقدر المستطاع ، بالاستعانة بكل من وسائل النقد الظاهري والباطني – وسوف يخصص جزء لهذا النوع الأخير فى موضع مقبل . ولا بد دائماً للباحث فى التاريخ من الصبر والتأني والحذر .

ومن الأمثلة كذلك فى هذا الصدد – دون بذل عناء كبير فى تحرّى الحقيقة – أن الباحث فى التاريخ قد يعثر فى أرشيف فلورنسا التاريخي على مجموعة من الكتابات المخطوطة عن المصادمات البحرية بين العثمانيين والتسكان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، جمعها أحد المهتمين بإبراز بطولة التسكان ، إذ يذكر انتصاراتهم دون هزائمهم . ويضع اسمه على هذه الكتابات ، ألا وهو بستيانو بالياني ، ولكنه لا يذكر المصادر التى أخذ عنها * . ولم يكن من رجال الحرب حتى يقدر الباحث قيمة معلوماته . ولكن المزيد من البحث فى أرشيف فلورنسا ذاته أوضح له أن بالياني قد اقتبس هذه المعلومات من عدة تقارير

وضعها بعض رجال الحملات البحرية التسكانية ، بقيادة بعض القواد مثل الفارس فرنشسكو دل موتي والأميرال إنجراي ، في الشرق الأدنى وفي شمال أفريقيا في سنة ١٦٠٧^(١) . وبذلك تتحدد قيمة هذه المعلومات من الناحيتين البحرية والسياسية .

ومن الأمثلة على التثبت من شخصية كاتب الأصل التاريخي ، أن الباحث في التاريخ قد يجد خطاباً بالإيطالية مدوناً في باريس بتاريخ ٢٩ يونيو سنة ١٧٨٩ ، موجهاً إلى حكومة على رأسها مجلس شيوخ . ولكن بغير تحديد اسم الحكومة أو اسم الكاتب . وتدل دراسة هذا الخطاب على أن كاتبه هو أحد السفراء الإيطاليين في فرنسا . فَنَسْهُ هو ذلك السفير؟ وإلى أية حكومة أرسل خطابه؟ يدل البحث الأولي على أن الحكومة الإيطالية الوحيدة التي كان على رأسها مجلس شيوخ في سنة ١٧٨٩ هي جمهورية البندقية . فالخطاب إذاً قد كتبه سفير البندقية في فرنسا إلى حكومته . فَنَسْهُ هو ذلك السفير؟ البحث في سجلات أرشيف البندقية يدل على أن سفير البندقية في باريس في ذلك الوقت كان هو أنتونيو كابلدو^(٢) .

وربما يحتوي الأصل التاريخي على معلومات عن حوادث رآها شاهد العيان بنفسه ، أو على معلومات سمع بها ونقلها عن الغير ، فينبغي أن يحدد الباحث بقدر المستطاع أجزاء الأصل التي دوتها الكاتب بناء على ما شهده بنفسه . وتعدّ أصلاً من الطبعة الأولى ، كما يحدد أجزاء الأصل التي اعتمد الكاتب في تسجيلها على الغير ، وتعدّ أصلاً من الطبقة الثانية ، مع تحديد مصدر هذا النوع الأخير من المعلومات . إذا أمكن ذلك .

ومن الأمثلة التي توضح ذلك ما ذكره كاميل ديمولان في بعض ما كتبه عن المشادة التي حدثت في باريس بين مندوب لويس السادس عشر وبين ميرابو ، حينما اجتمع مجلس طبقات الأمة في ٢٣ يونيو سنة ١٧٨٩ . ويعرف الباحث من التاريخ أن ذلك الاجتماع لم يكن حضوره مباحاً للجمهور . ولم يكن كاميل ديمولان عضواً فيه . وبذلك لم يحضر اجتماعه ولم يسمع بنفسه ما قاله ميرابو لمندوب الملك . فكلامه عن هذه المشادة أخذه عن طريق السماع ، ولذلك يعدّ أصلاً من

Archivio di Stato di Firenze : Mediceo. 2077. pp. 747-749 b.; 751-758 b. (١)

Fling : op. cit. pp. 65-66

(٢)

الطبقة الثانية . أما وصف كاميل ديمولان لما شهده خارج مكان الاجتماع من قدوم الملك أو احتشاد الجماهير ، فيعدّ أصلاً من الطبقة الأولى (١) .

وفي بعض الأحيان يجد الباحث كتاباً طُبِعَ في باريس في سنة ١٨٩٠ مثلاً ، ومن المحتمل أن يكون صاحب الاسم الموضوع عليه قد نقله بنصه عن مؤلف سابق وضعه في سنة ١٨٥٠ ، دون أن يعترف بوجوده . وصحيح أن السطوع على كتابة الغير ، المطبوعة وغير المطبوعة أو النقل منها بغير حساب ، قد نقص في الزمن الحديث ، ويمتعه القانون أحياناً ، إلا أنه لا يزال شائعاً في بعض الأقطار وفي بعض البيئات ، وكثيراً ما يجد الباحث في التاريخ أن بعض الوثائق والأصول ليست سوى نقل جزئي أو كلي لوثائق وأصول سابقة ، سواء أقصد الناقل السرقة وادعاء المعلومات لنفسه أم جمعها لأنها تهمة وتفديده (٢) ، ثم جاء من بعده مَنْ وجدها منسوبة إليه . فعلى الباحث في التاريخ أن يتعمّق الكاتب الأصلي بقدر المستطاع .

وقد يكون الأصل التاريخي من عمل أكثر من مؤلف واحد . فالكثير من الأصول تدخل عليها إضافات وزيادات وتعليقات في مواضع مختلفة ، ثم تطبع ويُعدّ الأصل وما أضيف إليه كأنه من وضع مؤلف واحد . فلا بد من السعي إلى كشف الحقيقة . وإذا وُجد الأصل المخطوط كان من الميسور تمييز الأصل من الإضافات والزيادات التي طرأت عليه . أما إذا ضاع الأصل المخطوط ولم يبق أمام الباحث سوى المطبوع منه ، أصبحت المسألة أكثر صعوبة . فعلى الباحث أن يدرس اللغة ، لكي يرى أهى واحدة أم متغيرة ؟ وهل الأسلوب واحد أم متغير ؟ وهل تسود الكتاب فكرة واحدة وروح واحدة ؟ وهل توجد خلافات ومتناقضات أو فجوات في تسلسل الأفكار ؟ وإذا كان الكاتب الذي أضاف في موضع أو أكثر من النص الأصلي رجلاً واضح الشخصية . أمكن تمييزه والتعرف عليه ، وإلا بقي مجهولاً لدى الباحث في التاريخ (٣) .

ولنعرض لمثال حققه الدكتور أسد رستم في هذا الصدد ، إذ عثر على مخطوطة صغيرة تتناول أخبار الدولة المصرية العلوية في سورية في زمن إبراهيم باشا ، وكانت

Flng : op. cit. p. 79.

(١)

Langlois and Seignobos : op. cit. p. 94.

(٢)

Langlois and Seignobos : op. cit. p. 93.

(٣)

غفلاً من الإمضاء . ووجد الدكتور أسد رسمَ أنها ليست تاريخياً واحداً بل ثلاثة تواريخ . قسمها إلى (اوب و ج) . ولاحظ أن هذه الأقسام لا تعطى حوادث متسلسلة ، ولا يبدأ قسم منها حيث ينتهي سابقه . وتتكرر الحوادث في أقسامها الثلاثة . ولاحظ أيضاً أن (ا و ج) يستعملان التاريخ الهجري أما (ب) فيستخدم التاريخ المسيحي . ووجد أن (ج) هو أكبر الأقسام وأن أخباره تتعلق بحوادث لبنان ، مع إعطاء تفصيلات شخصية ديرانية محلية عن دير القمر وبيت الدين . فرجَّح الدكتور أسد رسمَ أن كاتب (ج) شخص لبناني ديراني ، أو أقام بدير القمر على الأقل . فقصده إلى المكتبة البطريركية في بكركي ، وفحص أوراق سنوات ١٨٣١ - ١٨٤١ ، وبعد دراسة طويلة عثر على رسائل مكتوبة بنفس الخط الموجود في (ج) وبنفس اللغة واللهجة ، وعليها إمضاء القس أنطون الحلبي . فاتجه الدكتور أسد رسمَ إلى بطريرك الموارنة ماري إلياس الحويك ، وعرف منه أن القس أنطون الحلبي كان من المقربين إلى الأمير بشير الشهابي وأنه سكن بيت الدين . وأنه كتب عن أحكام الأمير بشير ، وعن حروب إبراهيم باشا في سورية . وأن أغلب ما كتبه قد أحرق في أثناء حوادث الصدام بين المسيحيين والدروز في سنة ١٨٤٥ . وبذلك عرف الدكتور أسد رسمَ أن القس أنطون الحلبي هو مؤلف الجزء (ج) من تلك المخطوطة ، وأنه كتبه في زمن وقوع الحوادث التي تناولها * .

وكما سبق أن أشرنا ، من الضروري أن يعرف الباحث كل ما يمكن معرفته عن شخصية كاتب الأصل التاريخي وصفاته ، لتقييم كتابته . وأحياناً يمكن للباحث أن يجمع المعلومات اللازمة عن شخصية الكاتب من بعض التراجم ، أو من الأصل التاريخي ذاته . فمثلاً بعض الكتابة المؤرخة في ٢٤ يونيو سنة ١٧٨٩ عن بعض حوادث الثورة الفرنسية في باريس وفرساي ، يعرف الباحث من لغتها وأسلوبها وطريقة عرضها ومعلوماتها أن كاتبها شخص مثقف . وأنه شاب قوي الجسم يمكنه أن ينتقل من باريس إلى فرساي في أثناء المطر المزمهر . ويدرك الباحث أنه شخص متحمس جريء ثوري ، يتكلم بصراحة ، ويقرر أن يمثل الشعب لا يهابون الموت . ويعلم الباحث أيضاً أن الكاتب كان مهتماً بالحوادث التي شهدتها ، وذلك لدقة

وصفها وحسن التعبير عنها . ولا ريب أن هذه الأوصاف تنطبق على كاميل ديمولان الذى كتب عن تلك الحوادث^(١).

والمسألة التالية فى هذه الناحية من النقد التاريخى ، هى معرفة الزمن الذى دُوِّن فيه الأصل التاريخى . فقد يكون الأصل صحيحاً غير مزيف ، وقد يكون كاتبه من الأشخاص الذين يتحررون الصدق والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فقد يُنقص من قيمته التاريخية بعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته وبين تدوين أخباره . فالذاكرة تخون الإنسان ، وكلما بَعُدَ بالكاتب العهد عن زمن وقوع الحادث تعرّض لأن يفوته قليل أو كثير من التفاصيل الخاصة ، مهما كانت رغبته فى قول الصدق قوية ، ومهما حاول استرجاع وقائع الماضى . فإذا لم يحدد الكاتب التاريخ الذى دُوِّن فيه ما كتبه ، فكيف يستطيع الباحث أن يحدّد ذلك ولو على وجه التقريب ؟ يمكن للباحث فى التاريخ أن يضع حدّين لبدء الأصل التاريخى ونهايته ، بناء على دراسة محتوياته ؛ أى أنه يعيّن التاريخ الذى لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله ، والتاريخ الذى لا يمكن أن تكون قد وقعت بعده . ولتحديد ذلك ينبغي أن يكون ملماً بثقافة تاريخية واسعة تتعلق بالعصر الذى يدرسه . ومن الواضح أن الأصل التاريخى يدوّن بعد آخر حادث ورد به . ولكن لا يُعرف دائماً متى تم ذلك التدوين ، أبعد آخر حادث ورد به بزمن قصير أم طويل . وهل يمكن تعيين تاريخ تدوينه على وجه التحديد ؟

وإذا فرضنا - جدلاً - أن خطاب سفير البندقية فى باريس - المشار إليه آنفاً - لم يكن مؤرخاً ، فمن الممكن التّعرّف على تاريخ كتابته بدراسة محتوياته . فالحوادث التى ذكرها السفير أنتونيو كاپلو هى حوادث يونيو سنة ١٧٨٩ ، وآخر حادث ذكره هو اجتماع مجلس طبقات الأمة فى ٢٧ يونيو سنة ١٧٨٩ . وعلى ذلك فمن المرجح أن يكون السفير قد دون خطابه بعد ذلك الحادث مباشرة وقبل أن يقع حادث آخر مهم فى نظره ، وكان من واجبه أن يكتب عنه . ومن المعروف أن مجلس طبقات الأمة قد اجتمع بعد ذلك فى ٣٠ يونيو سنة ١٧٨٩ . وبذلك يكون السفير كاپلو قد كتب خطابه إلى مجلس شيوخ البندقية فى ٢٨ أو فى ٢٩ يونيو سنة ١٧٨٩^(٢).

Flng : op cit. pp 67-69.

Flng : op it. pp. 72-73.

(١)

(٢)

ثم يواجه الباحث في التاريخ مسألة تعيين المكان الذي دُوّن فيه الأصل التاريخي ، وهي مكتملة ومرتبطة بما سبق . وسواء أكان النص أمام الباحث أصلاً تاريخياً من الطبقة الأولى أم كان أصلاً تاريخياً من الطبقة الثانية . فينبغي على الباحث أن يبذل وسعه لكي يعرف مكان تدوينه . فهل دُوّن شاهد العيان أخبار الحوادث في مكان حدوثها أم في مكان بعيد عنه ؟ وهل أخذ معلوماته عن أشخاص شهدوا الحوادث بأنفسهم ، وبذلك تصبح هذه المعلومات مصدراً من الطبقة الثانية ؟ وأين كان ذلك ؟ وهل كان التدوين في مكان يجعل كاتب الأصل التاريخي قادراً على تصوير الوقائع تصويراً صحيحاً ، أم أن التدوين حدث في مكان بعيد . واعتمد على الذاكرة والخيال في سرد الوقائع ؟

وقد يمكن التوصل إلى معرفة ذلك من المعلومات العامة عن الكاتب . فمثلاً نجد باي عمدة باريس السالف الذكر قد كتب مذكراته في ربيع سنة ١٧٩٢ . والبحث في تاريخ حياة باي يعرفنا أنه كان في ذلك الوقت مقيماً في نانت . وإذا فقد كتب مذكراته في نانت وليس في باريس مسرح الحوادث التي كتب عنها . ويتدخل القرب والبعث عن مكان الحوادث في تقدير المعلومات الواردة في الأصل التاريخي ، وإن لم يكن ذلك من الأدلة القاطعة على مدى الصدق فيها .